السَّنة السادسةُ والستُّون بعد المئة

فيها عقد المهديُّ البَيعةَ لابنه هارونَ بعد موسى ولقَّبه الرَّشيد، وكان هارونُ قد عاد من القُسطنطينية سالماً غانماً ومعه من المال ما كان تقرَّر بينه وبين المَلِكة، فقدم بغدادَ في المحرَّم.

وفيها غضب المهديُّ على وزيره يعقوبَ بنِ داودَ وحبسه في المُطْبِق، فأقام سبعَ عشْرةَ سنةً محبوساً، ثم أُخرج في أيَّام هارون، وسنذكره في سنة اثنتين وثمانين ومئة.

وفيها اعتمر المهديُّ في رمضان، ومضى إلى المدينة فصلَّى بالناس صلاةَ الفِطر وخطب، وأَطلق المهديُّ عبدَ الصمد بنَ عليٍّ من حبسه.

وفيها أَجدبت البلاد، فأمر المهديُّ الناسَ أن يَستسقوا، فذكر مصعبُ بن عبدِ الله الزُّبيريُّ عن الفضل بنِ الربيع قال: قُحِطَ الناسُ في سنة ستٍّ وستين ومئة، فنادى المهديُّ في الناس بأن يصوموا ثلاثةَ أيامٍ ويخرجوا في اليوم الرابعِ للاستسقاء، فصاموا ثلاثةَ أيامٍ وخرجوا في اليوم الرابعِ فسُقوا. وقيل: إنَّ الثلجَ نزل في الليلة الثالثة، فقال لَقيطُ بن بُكيرٍ[1] المحاربيُّ في ذلك هذه الأبيات: [من الخفيف]

يا إمامَ الهدى سُقينا بك الغيـ ... ـثَ وزالت عنَّا بك اللَّأواءُ
بتَّ تدعو الإلهَ والناسُ نُوَّا ... مٌ[2] عليهم من الظَّلام غِطاءُ
رقدوا حيث طال ليلُك فيهمْ ... لك خوفٌ تضرُّعٌ[3] وبكاءُ
فسُقينا وقد قُحِطنا وقلنا ... سَنَةٌ قد تنكَّرت[4] شهباءُ
بدعاءٍ أخلصتَه في ظلام الـ ... ـليلِ لله فاستُجيب[5] الدُّعاءُ
بثلوجٍ تحيا بها الأرضُ حتى ... أَصبحتْ وهي زهرةٌ خضراءُ

(١) في (خ): بكر. والمثبت من تاريخ الطبري ٨/ ١٨٣.
(٢) في (خ): نيام. والمثبت من تاريخ الطبري.
(٣) في (خ): وتضرع. ولا يستقيم به الوزن.
(٤) في (خ): ناكدت. وهو خطأ.
(٥) في (خ): فاستجاب. والمثبت من تاريخ الطبري.

وفيها أمرالمهديُّ بإقامة البريدِ من اليمن إلى مكَّة، ومن مكَّةَ إلى بغداد، ولم يكن قبل ذلك.

وفيها أُتي المهديُّ بجماعةٍ من الأَعيان اتُّهموا بالزَّندقة، فاستتابهم المهديُّ وأطلقهم، وكان منهم داودُ بن رَوح بنِ حاتم، وكان أبوه روحُ بن حاتِمٍ عاملاً على البصرة، فمنَّ المهديُّ على داود، ثم أَرسله إلى أبيه وقال له: أَدِّب ولدَك.

وحجَّ بالناس إبراهيمُ بن يحيى بنِ محمدٍ وهو على المدينة، واللهُ أعلم.

وفيها توفِّي

خالدُ بن بَرْمَك، أبو العباس

ولد سنةَ تسعين، وكان يختلف إلى محمد بنِ عليٍّ[1] بالحُمَيمة، فلما مات محمدٌ اختلف إلى إبراهيمَ الإمام، ولما قُتل أبو سَلَمةَ الخلَّالُ أمره أبو العباسِ أن يقرأَ الكتبَ عليه ويُجيبَ عنها، ولم يزل أمرُه يعلو حتى توفِّي السفَّاح وهو كاتبُه[2]، وكان يكره هو والعقلاءُ أن يقال: الوزير؛ لقول سليمانَ بنِ مهاجرٍ في قتل أبي سَلَمة: [من الكامل]

إنَّ الـوزيـرَ وزيـرَ آلِ مـحـمـدٍ أودَى فـمَـن يـشـنـاك كـان وزيـرا

وأمُّ خالد بنتُ يزيدَ امرأةُ خالدِ بن بَرْمكَ أَرضعت ريطةَ بنتَ السَّفَّاح بلِبان أمِّ يحيى بنتِ خالد، وأَرضعت أمُّ سلمةَ المخزوميةُ زوجةُ السفَّاح أمَّ يحيى بنتَ خالدٍ بلِبان ابنتِها ريطة، فدخل خالدٌ يوماً على السفَّاح، فقال له: يا خالد، أَمَا رضيتَ حتى استخدمتَني؟ ففزع خالدٌ وقال: كيف وأنا عبدُك؟! فضحك وقال: ريطة ابنتي تنام مع ابنتك أمِّ يحيى في مكانٍ واحد، فأَنتبهُ بالليل وقد انكشفتا، فأَقوم فأمدُّ اللِّحافَ عليهما، فقبَّل خالدٌ يديه وقال: مولًى يؤجَر في عبده وأَمَته. وأمُّ خالدِ بن بَرْمك أَمَةُ الله بنتُ صُول.

ولما توفِّي أبو العباسِ أقرَّه أبو جعفرٍ على وزارته مُدَيدة، ثم استوزر أبا أيوبَ المورياني، وكان أبو جعفرٍ يأنس بخالد، وكان أبو أيوبَ يحسُده، فأراد أن يُبعدَه عنه،

(١) هو والد السفاح. انظر تاريخ دمشق ٥/ ٤١٣ (مخطوط)، وتاريخ الإسلام ٤/ ٣٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ٤٥٠.

فاتفق هجومُ الأكرادِ على فارس، فاشتدَّ ذلك على أبي جعفر، فاستشار أبا أيوبَ وقال: انظر رجلاً أولِّيه فارس، فقال: ما أعرفُ رجلاً يقوم بها مثلَ خالد، فقال: صدقت. وعقد له على فارسَ وولَّاه حربها وخَراجها، وإنما كان يلي الحربَ واحدٌ والخراجَ آخَر، فكان خالدٌ أولَ مَن جُمع له الحربُ والخراج في دولة بني العبَّاس، فسار إلى فارسَ ومعه وجوهُ الناس، وانتجعه الشعراءُ ومدحوه.

وقال أبو عَمرٍو العمراوي: أَجمع الناسُ ممن عرفناه من السادات والملوك والعلماءِ أنَّه ما بلغ مبلغَ خالدِ بن بَرمكَ أحدٌ من ولده، وأنَّ الفضائل التي[1] تفرَّقت فيهم اجتمعت فيه، كان فوق يحيى في رأيه وحِلمه، وفوق الفضلِ في سَخائه وكرمه، وفوق جعفرٍ في كتابته وفصاحته، وفوق محمدٍ في حُسن أُبَّهته، وفوق موسى في بأسه وشجاعته.

ثم تصرَّفت الولاياتُ بخالد، وجرت له مع أبي جعفرٍ قِصص، وأَغرمه ثلاثةَ آلافِ ألف درهم، وولَّاه الموصل، فمات أبو جعفرٍ وهو عليها وابنُه يحيى على أَذْرَبيجان. ولما مات المنصورُ أقرَّه المهديُّ على الموصل وزاد فارسَ وأعمالَها، فبعث ابنَه يحيى إليها، ثم ولي الرَّي، وكان مع المهديِّ بطَبَرِسْتان.

وخالدٌ أوَّل مَن سمّى المنتجِعين الزوَّار، وكانوا يسمَّون السؤَّال، فقال ابنُ حُبيباتٍ[2] يزيدُ بن خالدٍ الكوفي[3]: [من الطويل]

حذا خالدٌ في جُوده حَذْوَ بَرْمَكٍ ... فمجدٌ له مستطرَفٌ وأَثيلُ
فسمَّاهم الزُّوَّارَ سَتراً عليهمُ ... وذلك مِن فعل النَّبيلِ نبيلُ

ومِن مدحه في خالد: [من البسيط]

لم يبقَ إلَّا الذي شيرازُ منزلُه ... أَعني ابنَ برمكَ مِمَّن يُرتجى أَحدُ
إنْ أنت لم تنقلب من خالدٍ بغنًى ... فاقعدْ فقد مُلك المعروفُ والصُّعدُ

وما أحدٌ من أهل خراسانَ إلَّا ولخالدٍ عليه مِنَّة ويد، وعلى غيرهم، وما كان له

(١) في (خ): الذي.

(٢) في (خ): حيان. وهو خطأ.

(٣) و كذا في الوافي ١٣/ ٢٤٨، والبيتان في ديوان بشار بن برد ٢/ ٤٦٥، ونسبهما له صاحب الأغاني ٣/ ١٧٣.

صاحبٌ وله دارٌ إلَّا وهي من نعمة خالد، ولا بستانٌ ولا قريةٌ ولا ابنٌ إلا وأمُّ ولدِه من خالد، ولا نعمةٌ إلا وخالدٌ أصلُها، وأَوقف على أبنائهم الأَوقاف.

وخرج خالدٌ مع قَحطبةَ لمحاربة ابنِ ضبارة[١]، فنزلوا بعيداً منه ولم يستعدُّوا للقائه، فجلس قحطبةُ وخالدٌ يوماً على سطحٍ في قرية، وإذا بقطيعٍ من الوحش والظِّباء قد خالطت العسكر، فصاح خالد: اِلبسوا السلاحَ فقد دهمكم العسكر، فلبسوا، وإذا بابن ضبارةَ قد أَقبل في جيوشه، والتقَوا فاقتتلوا، فقُتل ابنُ ضبارة وغنموا عسكرَه، فقال قحطبةُ لخالد: من أين علمت؟ فقال: رأيت قُطعانَ الوحش والظباءِ قد أَقبلت خالطت العسكر، ومن صفتها أن تنفِر، فعلمتُ أنه قد دهمها جيشٌ عظيم، فخالطت الإنسَ من خوفها منه.

وهجا أبو سَمَاعةَ المُعَيطيُّ خالداً ويحيى فقال: [من الخفيف]

زرتُ يحيى وخالداً مخلِصاً للَّـه [دِيني][٢] فاستصغرا بعضَ شاني
ولو انِّي أَلحدتُ في الله يوماً ولو انِّي عبدتُ ما يعبدانِ
ما استخفَّا فيما أظنُّ بشأني ولأَصبحتُ منهما في مكانِ
إنَّ شَكلي وشكلَ مَن يجحد اللَّـه وآياتِه لَمختلفانِ

وبلغ خالداً فلم يقل شيئاً، وكان حليماً، وبقيت في قلب يحيى، فلما مات خالدٌ وولي يحيى الوزارةَ دخل عليه المُعَيطي، فلما رآه يحيى قال: مَن القائل:

زرتُ يحيى وخالداً مخلصاً لله؟

قال: ما أعلم. فاستحلفه بالله وبطلاق زوجتِه وصدقةِ ماله أنَّه ما يعلم مَن قاله، فحلف، فالتفت يحيى إلى أصحابه وقال: نحتاج نجدِّد لأبي سَمَاعةَ منزلاً وزوجة، يا غلام، أَعطِه عشرةَ آلافِ درهم وتختاً من الثياب، فأَعطاه، وخرج المعيطيُّ فقال: ما أَصنع بابن الزانية [أبى][٣] إلَّا كرماً، وبلغت يحيى، فاستدعاه فقال: ما الذي قلت؟

(١) في الوافي ١٣/ ٢٤٨: لمحاربة يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري.
(٢) ما بين حاصرتين من تاريخ دمشق ٥/ ٤١٣ (مخطوط).
(٣) ما بين حاصرتين من تاريخ دمشق.

فأنكر وقال: حسدوني، فقال يحيى: لا أَعدمك اللهُ ما جبلك عليه من لؤم طباعِك ومذمومِ أخلاقك، وما هو إلَّا كما قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: المؤمنُ لا يَشفي غيظَه.

ثم إن المُعَيطيَّ هجا سلبمانَ بنَ أبي جعفر، وكان محسِناً إليه، فضربه مئة سَوطٍ وحلق رأسَه ولحيتَه[1].

ذِكْر وفاةِ خالد:

كان المهديُّ قد أَشخصه إلى الغزو لبلاد الرومِ مع ابنه هارون، فمات أخوه الحسنُ ابن برمكَ في تلك الغَزاة، فجزع عليه ومرض، ودخل بغدادَ وهو مريض، فبعث إليه المهديُّ من عنده أَكفاناً وحَنُوطاً، وبعث ابنَه موسى بنَ المهديِّ فصلَّى عليه، وذلك في جمادى الأُولى من هذه السَّنةِ[2] وهو ابنُ خمسٍ وسبعين سنة.

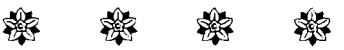

(١) فُعل به ذلك بأمر من هارون الرشيد، كما في تاريخ دمشق.

(٢) ذكرت المصادر وفاته في سنة ١٦٥، أو ١٦٣.انظر تاريخ دمشق ٥/ ٤١٤، ووفيات الأعيان ١/ ٣٣٢، وتاريخ الإسلام ٤/ ٣٥٠، والوافي ١٣/ ٢٤٨.